

# الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الاسكندرية في العصر الاسلامى

بحث ألقى في المهرجان  
الذى أعد للاحتفال بمرور أحد عشر قرناً  
على تأسيس جامعة القرويين  
( ٥ - ٩ أكتوبر ١٩٦٠ )

بقلم

الدكتور جمال الدين السبيل

أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة الاسكندرية  
والمستشار الثقافى بسفارة الجمهورية العربية المتحدة - الرباط



باسم جامعة الاسكندرية التتية أحيي جامعة القرويين العريقة في هذه المناسبة السعيدة . مناسبة الاحتفال بمرور أحد عشر قرناً على تأسيسها ، وجامعة الاسكندرية أحتي الجامعات أن تكون لها الصدارة عند تقديم هذه التحية ، فلقد كان موقع مدينة الاسكندرية الجغرافي أثر كبير في توثيق العلاقات بينها وبين بلاد المغرب والأندلس في العصور الوسطى الاسلامية ، فالاسكندرية كانت ثغراً من الثغور الاسلامية الهامة ، وكانت رباطاً كبيراً ترابط فيها - منذ دخلها الاسلام - حامية مسلحة كبيرة ، فقد خصص عمرو بن العاص ربيع جيشه لرباط الاسكندرية يقيمون بها ستة أشهر ، ثم يستبدل بهم ربيع آخر ، وكان عمر بن الخطاب يرسل كل ستة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية ، وذلك لأن العرب لم يكونوا يأمنون عليها من غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين ، وحاولوا الهجوم عليها واستردادها .

وكتب عثمان الى عبد الله بن سعد بن أبي السرح بعد نقض الروم :

” قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية . وقد نقضت الروم مرتين ، فالزم الاسكندرية ورباطها ، ثم أجر عليهم أرزاقهم ، وأعتب منهم في كل ستة أشهر “ .

ومن الأقوال المأثورة أن الاسكندرية « كنانة الله يحمل فيها خير سبامه » .  
وقال عبد الله بن مرزوق الصدفى :

” لما نعى الى ابن عمى خالد بن يزيد - وكان توفى بالاسكندرية -  
فنبى موسى بن على بن رباح وعبد الله بن لحيعة ، والنبيث بن سعد  
مترفين : كلفهم يقولون : أليس مات في الاسكندرية؟ فأقول بلى ،  
فيقولون : هو حى عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت  
النديا ، وأنه أجر شهيد حتى يحشر على ذلك “ .

فالمسلمون الأول كانوا يعتقدون أن الإقامة في الرباطات والحياة في الثغور نوع من الجهاد ، ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد . ولهذا

جذبت الاسكندرية إليها في العصور الاسلامية عدداً كبيراً من المسلمين ،  
ومن العلماء بوجه خاص ، ومن علماء المغرب والأندلس بوجه أخص .

كما أن مسلمي المغرب والأندلس كانت تتطلع نفوسهم وتنهو أرواحهم  
دائماً الى المشرق : منبث الدعوة الاسلامية ، ومقر البُلدان المقدسة : مكة  
والمدينة وبيت المقدس ، وموطن العلم الاسلامي ، ودار العلماء والمعاهد  
العلمية المختلفة ، فهم كانوا في شوق دائم الى الرحلة الى هذا المشرق ،  
وهدفهم الأول أداء الفريضة والحج الى بيت الله ، وزيارة قبر الرسول عليه  
السلام ، والأمام بالمسجد ومعاهد العلم ، ومقابلة العلماء والأخذ عنهم .

وكان المخط الأول لرحلتهم المشرقية هو مدينة الاسكندرية - الرباط  
والنفر الاسلامي الكبير - يصلون إليها بعد رحلة طويلة شاقة مضنية . عبر  
الصحراء في المعتاد ، وعلى ظهور الحن في القليل ائثار ، وهم كانوا  
اذا وصلوها أقاموا فيها فأطالوا الإقامة طلباً للراحة من عناء السفر ، وزيارة  
معالمها التاريخية التي كانت تبهر أنظارهم وقتذاك ، مثل المنارة - احدى  
عجائب الدنيا - ، وعمود السوارى ، والمسلات ، والقصور والكنايس  
القديمة ، والأسوار الشاهقة وما يتخللها من أبراج وحصون وأبواب ،  
وأخيراً المساجد التي بنيت في العصر الاسلامي لتكون معابد يذكر فيها اسم  
الله كثيراً ومدارس تعقد في جنباتها حلقات العلم والتعليم .

وكان هؤلاء المغاربة والأندلسيون يستأنفون رحلتهم بعد ذلك فيؤدون  
الفريضة ، وقد تشوق البعض منهم الرحلة ومباهجها فيفتقلون في مدن الشرق  
وأمصاره الكبرى مثل بغداد ودمشق وبيت المقدس وغيرها ، لزيارتها  
والإفادة من علمائها ، ثم يعودون بعد هذه الرحلة الطويلة الى الاسكندرية  
ليستأنفوا منها طريق العودة الى بلادهم ، ولكن كثيرين منهم - وخاصة  
العلماء وطلاب العلم - كانوا يؤثرون البقاء في الاسكندرية واتخاذها وطناً  
ودار إقامة ، لينالوا شرف المقام في هذا النفر والرباط العظيم ، وليستزبلوا  
من علم يطلبونه ، وينشروا علماً حصلوه وأصبحوا فيه أئمة وفقهاء وقادة .

وقد زادت صلة الاسكندرية بالمغرب توثيقاً منذ أتى الفاطميون بجيوشهم من المغرب وفتحوا مصر واتخذوها مقر الخلافة ، فقد أُمِّح المغرب كله ومصر والشام دولة واحدة ، ونتيجة لهذا كثرت رحلة المغاربة والأندلسيين الى مصر ، وإلى الاسكندرية بوجه خاص .

ورغم أن المذهب الرسمي للدولة في العصر الفاطمي كان هو المذهب الشيعي ، ورغم أن الدولة بذلت جهوداً كبيرة لنشر هذا المذهب بين المصريين جميعاً . فقد ظلت مدينة الاسكندرية مدينة سنية ، وكان المذهب المنتشر بين الاسكندريين والمعمول به بينهم هو مذهب الامام مالك منذ انتشر هذا المذهب في المغرب وبين المغاربة ، وبتأثير الجوار والرحلة انتقل الى الاسكندرية وساد فيها ، ولهذا نرى أن عدداً كبيراً من علماء الاسكندرية في العصر الاسلامي - المصريين منهم والمغاربة - كانوا مالكي المذهب .

من كبار هؤلاء العلماء المالكية الذين رحلوا من المغرب والأندلس الى الاسكندرية واستقروا بها في القرن الخامس الهجري - أي في العصر الفاطمي . واتخذوها وطناً ودار مقام التقيہ العالم انصرفي الكبير أبو بكر الطرطوشي .

ولد هذا العالم الجليل في مدينة طرطوشة في سنة ٤٥٠ هـ وأخذ انعلم أولاً على علماء المغرب والأندلس ، وخاصة أبا الوليد الباجي ، ثم شافته الرحلة الى المشرق فرحل الى مكة وأدى فريضة الحج وجاور بها وقتاً ، ثم زار بغداد وقت أن كانت تبني بها المدرسة النظامية فتعلم على أساتذتها . وزار مدناً أخرى كثيرة في العراق والشام . وانتهى به المطاف الى مدينة الاسكندرية حوالي سنة ٤٩٠ هـ فطاب له المقام بها وتزوج من ميلة مومسة من أهلها أهدته داراً فاتخذ من الطابق العلوي سكناً . ومن الطابق السفلي مدرسة كان يدرس بها العلوم الاسلامية المختلفة وخاصة علم الحديث والتقيہ المالكي ، وتعلم عليه الكثيرون من أهلها ومن الوافدين عليها مدة ثلاثين عاماً نشر في خلالها علماً كثيراً ، وأصبحت الاسكندرية بفضلها محجاً يحج إليها طلاب العلم من كل حدب وصوب ، الى أن توفي الى رحمة الله سنة ٥٢٠ هـ ودفن بمدينة الاسكندرية ، ولازال قبره معلماً من أهم معالمها .

وعاصر الطرطوشي في مدينة الاسكندرية عالم كبير. آخر أتى الى المدينة  
يسمى من أقصى الشرق ، من مدينة أصهان ، ذاكم هو المحافظ أبو انطاهر  
أحمد بن محمد بن أحمد السلفي ، واحد من كبار علماء الحديث الذين عرفهم  
تاريخ الفكر الاسلامي .

واشتغل السلفي منذ نزوله بالاسكندرية بالتدريس ، وتدريس الحديث  
بوجه خاص ، وكان يعقد حلقاته أول الأمر في مساجد المدينة ، ولم يلبث  
أن أقبل الطلاب عليه من جميع أنحاء العالم الاسلامي ، وفي حدود سنة ٥٤٠ هـ  
بنى له العادل بن السلار - الوزير الفاطمي - مدرسة خاصة به عرفت أول  
الأمر بالمدرسة العادلية - نسبة الى بانيها - ثم عرفت فيما بعد باسم المدرسة  
السلفية - نسبة الى أستاذها وشيخها - .

وفي « معجم السفر » للسلفي تراجم لكثيرين ممن تتلمذ عليه من أهل  
المغرب والأندلس ، وكان بعض هؤلاء وسيلة طيبة لنشر علم السلفي  
في بلادهم بعد غودتهم ، من هؤلاء : أبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور  
الناهرقي ، قال السلفي في ترجمته : « كان من الفضلاء في الفقه والأدب ،  
وله شعر ، وكتب عني من الحديث كثيراً بعد رجوعه من الحجاز ، ثم رجع  
الى المغرب وروى عني هناك » .

ومنهم أبو الوليد يوسف بن المفضل القبطاني ، ولم يقع بالأخذ  
عن السلفي بل سأله أن يكتب بإجازة لسلطان المغرب في ذلك الوقت تاشفين  
ابن علي بن يوسف بن تاشفين ، فكتبها له .

وأخذ عنه من علماء بلنسية بالأندلس أبو الحسن طارق بن موسى ابن  
يعيش البلنسي ، قال السلفي في ترجمته : « كان من أهل الصلاح ، وقد أقام  
بالاسكندرية مدة مديدة ، وسمع على جماعة من شيوخها بقراعتي وبقراءة  
غبري ، وكتب عني كثيراً ، ثم رجع الى الأندلس وروى به ما سمعته على  
وعلي غبري » .

وفي رحبات جامع القرويين ، وفي ربي مدينة فاس الحضرة وفي كهوف  
جبالها كان ينتقل ويعيش في أواخر القرن السادس الهجري الصوفي الكبير

الشيخ أبو يعزى يلنور . وكان الناس يفدون إليه من جميع أنحاء المغرب والأندلس ، يأخذون عنه ، ويستمعون إليه ، وياتسون عنده التبركات ، وفي مقدمة من وفد عليه القطب الغوث أبو مدين التلمساني فعاش معه سنين يقتبس من طريقته بالاقبال ككل الاقبال على الصوم والزهد والصلاة والتشف والعبادة ، حتى اذا قيس قبسة من روح أستاذه أبي يعزى رحل الى المشرق ايقبس قبسات أخريات من شيوخ المتصوفة هناك ، ومن سيدى عبد القادر الجيلاني قطب العراق بوجه خاص ، وعاد أبو مدين الى المغرب فأقام في بجاية ، وفاقته شهرته شهرة أستاذه أبي يعزى ، ولقبه القوم هناك بالغوث ، وتلمذ عليه العشرات من كبار العلماء ، وفي مقدمتهم الفيلسوف المتصوف الكبير محيي الدين بن عربي والشيخ أبو عبد الله محمد بن حرازم ، أحد شيوخ أبي الحسن الشاذلي .

وقد ولد أبو الحسن الشاذلي في أواخر القرن السادس الهجري في سنة ٥٩٣ هـ في قرية عمارة بالقرب من مدينة سبتة بالمغرب الأقصى ، وينتمي الى قبيلة عموان إحدى قبائل المغرب ، واليه ينتمي كذلك ولي الله سيدى عبد الرحيم القناوى ، قطب مدينة قنا بصعيد مصر .

وقد بدأ أبو الحسن الشاذلي يتلقى الطريقة على يد شيخه وأستاذه أبي عبد الله محمد بن حرازم أحد تلامذة أبي مدين ، ولبس على يديه خرقه التصوف .

وانتقل أبو الحسن الى تونس فدرس بها مدة ثم دخل مدينة الاسكندرية وطوف في بلدان الشرق العربي ، وكان أثناء تفرقه في هذه البلدان المشرقية لا يسعى لطلب العلم وحده ، ولكنه كان يبحث عن ضائته المنشودة ، يبحث عن القطب الغوث ، فلما اطمانت نفسه في العراق الى شيخه أبي الفتح الواسطي . شيخ الطريقة الرفاعية - فاتمه بدخيلة نفسه وحده عن أمينته ، ولكن الشيخ أبا الفتح أخبره أن القطب في وطنه الأصلي ، في المغرب ، فان كان يبحث عنه حقيقة فليعد الى المغرب ، واستمع أبو الحسن الى نصيحة شيخه وعاد الى المغرب ، وظل يواصل الرحلة والبحث الى أن التقى بالقطب ،

الى أن التقى بشيخه وأستاذه الأكبر الذي أخذ عنه الطريق. وليس على يديه خرقه التصوف ، والذي ظل ينتسب اليه ، وهو الشيخ عبد السلام بن ميثس وأقبل الشاذل - وهو في صحة أستاذه - على العبادة ، فطهر نفسه من حب الدنيا ومن الاقبال على الخلق ، وأقبل على حب الله وفيه في حبه ، فلما صفت نفسه وأصبح أهلاً للولاية وورثة القبطانية أمره أستاذه ابن ميثس أن يرحل عن فاس الى تونس ثم الى الشرق ، وتنبأ له بما سيحدث له في مستقبل أيامه ، فكان له : ارحل الى افريقية واسكن بها بلداً تسمى شاذلة فان الله يملك الشاذل ، وبعد ذلك تنتقل الى مدينة تونس - ويؤتي عليك من قبل السلطنة ، وبعد ذلك تنتقل الى بلاد الشرق ، وترث القبطانية .

وأقام الشيخ أبو الحسن في تونس وقتاً ما ثم تركها الى المشرق واستقر في مدينة الاسكندرية ، وفيها بدأ يلقي دروسه ويعقد الحلقات يعظ الناس ويدعو الى طريقته ومبادئه ، وجذبت اليه هذه الدروس والمواظب الجليلة من علماء المدينة وفقهائها فلازموها ملازمة تامة ، وسيكون هؤلاء التلاميذ فيما بعد قادة الحياة الفكرية والروحية في المدينة ، نذكر منهم تلميذه الأثير وخليفته في القبطانية أبا العباس المرسي ، والشيخ أمين الدين الأحمر والشيخ أبا القاسم القباري ، والشيخ ابن المنير ، والشيخ أمين الدين جبريل وكثيرين وغيرهم .

وحدث الشيخ ياقوت العرش رواية عن شيخه أبا العباس المرسي ، أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي كان يحج في كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده الى انقضاء الحج . ثم يزور القبر الشريف ويجعل طريقه على صعيد مصر ويعود على الدرب الكبير الى الاسكندرية .

ففي مدينة فاس جمع الشيخ أبو الحسن العلم من أطرافه ، وورث روحانية أشاعها في جنات المغرب شيوخ أجلاء : أبو مدين - أبو يعزى بلنور ، وأبو عبد الله بن حرازم ، عبد السلام بن ميثس .

وفي الاسكندرية نشر الشيخ أبو الحسن هذا العلم كله وأشاع هذه الروحانية وتخرج على يديه طبقات من العلماء والزهادين وتكونت في المدينة مدرسة دينية صوفية تمتاز بطابع خاص ، بدأت بتلميذه أبي العباس المرسي ، ثم خلف من بعده أبي العباس تلاميذ كثر ، نذكر من بينهم ياقوت العرش ، والأباصيري - صاحب الردة - ، وابن عطاء الله السكندري .

ولابن عطاء الله فضل كبير على الطريقة الشاذلية ، فهو الذي ترجم لأستاذه أبي العباس المرسي ولأستاذ أستاذه مؤسس الطريقة أبي الحسن الشاذلي ، وهو الذي جعل عنهما معظم مبادئهما وأقوالهما في كتابه المشهور : « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن » .

وأشهر كتبه جميعاً كتاب « الحكم » ، وبلغ ابن عطاء الله بأسلوبه في الحكم الفروقة التصوي من الابداع والتركيز والتحليل وشرح آداب الطريقة ، فان له فيها منهجاً خاصاً ، فهو لا يعنى بالمعنى وحده ولا بالأسلوب وحده بل هو يعتقد أن للبيان سحراً خاصاً ، لهذا كان يتخير الألفاظ ذات الجرس الحاض والنغم الموسيقي المؤثر ، ومن هنا كان لأسلوبه سحر يؤثر في قارئ الحكم وسامعيه . ولهذا ظل كتاب الحكم يقرأ قروناً طويلة في الجامعات الاسلاميتين العريقتين : الجامعة الأزهرية وجامعة القرويين وقد انتشر كتابان من كتب تلميذين من تلاميذ أبي العباس المرسي في المغرب كما لم ينتشر أى كتاب ديني آخر ، وشرحهما الكثيرون من الشراح المغاربة من شيوخ القرويين وتلاميذها ، ذلكما هما كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري وقصيدة الردة للأباصيري السكندري .

أيها السادة ...

هذه لمحة خاطفة أردت بها أن أضرب المثل ، ولا يتسع المقام للافاضة ، فالحديث طويل والعلاقات الثقافية بين المغرب والاسكندرية تحتاج الى سفر متعدد المجلدات ، وعندما جثم العدو الغاشم على هذه البلاد ابان عهد الحماية انقطعت هذه العلاقات أو كادت ، ثم توجت جهود الملك المجاهد محمد

الخامس وشعبه الكريم بالنجاح ، أوشرقت على البلاد شمس استقلال  
والعزة ، وعادت أواصر الأخوة أقوى مما كانت ، وانتمتحت الجامعة المغربية  
الحديثة : ووجهت النداء إلى المشرق تطلب أساتذة يتعاونون مع اخوانهم  
المغاربة على النهوض بهذه الجامعة الفتية ، فكانت جامعة الاسكندرية أول  
جامعة لبث النداء ، وكان أول أستاذ انتدب من المشرق للعمل في جامعة  
الرباط هو الزميل الدكتور مختار العبادي - مدرس التاريخ الاسلامي بجامعة  
الاسكندرية : ثم أكرمتهى دولتي ، فاخترتهى - وكنت أشغل من قبل  
كرسى التاريخ الاسلامي بجامعة الاسكندرية - لأكون مستشاراً ثقافياً  
بسفارة الجمهورية العربية المتحدة . ومهمة المستشار الثقافي الكبرى ،  
هى العمل على توثيق العلاقات الثقافية بين البلدين ، فالله أسأل أن يوفقنى  
لتحقيق هذا الهدف السامى حتى تعود العلاقات الثقافية العربية الإسلامية  
بين المغرب والجمهورية العربية المتحدة مزدهرة قوية كما كانت . بل  
وأكثر ازدهاراً وأعز قوة مما كانت . والله ولى التوفيق .